فؤاد شهاب: بعد الرئاسة

الرئيس شارل حلو والشهابيين

أقام الرئيس شهاب في منزله الصغير في جونية، شتاء، وفي المنزل الذي كان مستأجراً له من عائلة المدور في عجلتون، صيفاً، محاطاً، فقط، بالحراسة العادية البسيطة التي لكل رئيس سابق للجمهورية أو قائد سابق للجيش، الحق فيها. ولكنه لم ينقطع عن استقبال "الشهابيين"، المدنيين والعسكريين، السياسيين منهم والإداريين. كما لم ينقطع معظمهم، عن زيارته، أو الاتصال به. صحيح انه كان حريصاً على ألا يتدخل في شؤون الحكم والسياسة اليومية، وخصوصاً في التفاصيل، لكنه كان حريصاً على متابعة المشاريع الكبيرة التي أرسى قواعدها في عهده، كالضمان الاجتماعي، والخطة الإنمائية وحالة الجيش وأوضاعه... وبطبيعة الحال،

الرئيس فؤاد شهاب يشرب نخب الرئيس شارل حلو، بعد انتخابه في صيف ١٩٦٤

بقي رفاقه من كبار الضباط في الجيش و "وأبناؤه، من الضباط الذي تعاونوا معه، عن قرب، إبان رئاسته للجمهورية، والذين كانوا قد وصلوا إلى مراكز هامة أو حساسة، في الجيش أو في القصر الجمهوري، على صلة واتصال به. أسوة بعدد كبير من النواب والسياسيين وكبار الموظفين الذين عملوا معه أو أحبوه أو آمنوا بمبادئه ونهجه. ولم يكن رئيس الجمهورية الجديد، شارل حلو، يبدي أي اعتراض أو شعور بالمضايقة، إزاء هذا الاستمرار للشهابية في بداية عهده. بل، بالعكس، حافظ في القصر الجمهوري، على كبار معاوني الرئيس شهاب، كما لم يتدخل في الجيش وقيادته، ولا سيما على مستوى المكتب الثاني. حتى انه جاز القول، في السنوات الأولى لعهد الرئيس حلو، ان الشهابية مستمرة، بكل أسسها ومرتكزاتها وشعاراتها وحتى بوجوهها، مع إدخال بعض اللمسات الجديدة عليها، التي كان الرئيس حلو، حريصاً على إضافتها.

ولكن "شهر العسل"، بين الشهابيين والرئيس حلو، الذي دام سنتين أو ثلاثة، ما لبث أن تحول إلى "حرب باردة". كما ان أحداثاً وتطورات داخلية وإقليمية، ما لبثت أن أفسدت العلاقات بين الرئيس حلو والشهابيين، وغيرت الأسباب والقواعد والأهداف، التي كانت الشهابية ترتكز عليها، لبنانياً وعربياً، بل ودولياً.

وما لا شك فيه ان الرئيس حلو الذي كان مديناً بوصوله للرئاسة إلى الرئيس شهاب والنواب النهجيين وزعماء الكتل النيابية الذين تعاونوا مع الرئيس شهاب، واستمروا في ولائهم أو وفائهم أو علاقتهم به، كان من الصعب عليه، نفسيًا وسياسياً، عدم الاستمرار في التعاون معهم والاتكال عليهم في ممارسته للحكم. كما كان من الطبيعي أن يتعاون هؤلاء معه، بإخلاص، مقابل اتكاله عليهم. لكن الرئيس حلو أخذ يشعر، تدريجياً، بأن ظل فؤاد شهاب على الحكم والجيش والإدارات العامة ما زال مخيماً. وان معظم الذين يتعاون معهم في الحكم، من سياسيين وضباط وإداريين، يعتبرون أنفسهم شهابيين، ويدينون بالولاء أو يعملون بتوجيهات الرئيس شهاب. ومن الطبيعي أن يحدث ذلك في نفسه، مع الوقت، أثراً سلبياً. فرئيس الجمهورية، أي رئيس لأي جمهورية، يؤثر، من وزرائه ومعاونيه وكبار الإداريين في الدولة، أن يكون ولاؤهم له، لا لسواه. كما ان بعض الزعماء السياسيين النهجيين أو الشهابيين في الإدارة والجيش ، في تعاملهم مع الرئيس حلو، لم يراعوا هذه الحساسية، مما حول المشاعر الإيجابية في نفسه نحوهم، إلى مشاعر سلبية.

إلا أن هذا التطور النفسي في العلاقات ما بين الرئيس حلو والشهابيين، السياسيين والإداريين والعسكريين، ما كان ليؤدي إلى الطلاق في أواخر عهده، لو لم تقع نكسة حزيران ١٩٦٧، العسكرية، التي غيرت معظم المعادلات الاستراتيجية، الدولية والإقليمية، وفي طليعتها المعادلة الناصرية ـ الشهابية، التي كانت في أساس الاستقرار الوطني والسياسي في لبنان. إضافة إلى ذلك أسفرت الانتخابات النيابية اللبنانية، العام ١٩٦٨، عن هزيمة الشهابيين في جبل لبنان، وبعض المناطق اللبنانية الأخرى، وهي هزيمة أدخلت إلى مجلس النواب عدداً كبيراً من السياسيين المعارضين لفؤاد شهاب وللشهابية. إثر نشوء ما سمي بالحلف الثلاثي، أي تأليف كتلة أو حلف سياسي يضم كميل شمعون وريمون اده وبيار الجميل، وهم رؤساء الأحزاب السياسية المارونية الكبرى، الرافعة لشعارات سياسية ووطنية جديدة، تناقض الشعارات التي كانت الشهابية والناصرية ترفعها أو تعمل بوحيها. وكانت السنتان الأخيرتان من عهد الرئيس حلو (١٩٦٨ ـ ١٩٧٠)، حافلتين بالأحداث التي ستؤدي، في نتيجتها، إلى سقوط مرشح الشهابية،

الياس سركيس، في الانتخابات الرئاسية، العام ١٩٧٠، وفوز مرشح المعارضة، سليمان فرنجية، وبالتالي، إلى طي صفحة التجربة الشهابية وإن مؤقتاً، في تاريخ لبنان الحديث.

ما الذي حدث، بالضبط، في عهد الرئيس حلو، الذي كان من المنتظر أو المفترض، أن يكون امتداداً أو تكملة للشهابية، وطنياً وسياسياً ونهجاً اجتماعياً وإصلاحاً وأن ينتهي بغير ما انتهى به، من انتصار معارضيه عليه؟ هل إن الرئيس شارل حلو، كما ردد البعض، هو الذي حفر تحت أقدام الشهابيين، الحفرة التي وقعوا فيها؟ أم هل كان الشهابيون أنفسهم، ولا سيما ضباط المكتب الثاني والمخططون السياسيون الشهابيون، هم الذين ارتكبوا أخطاء فادحة، ساهمت في خسارتهم لمعركة الرئاسة العام ١٩٧٠؟ أم هي الظروف الإقليمية والمصالح الدولية وانعكاساتها على الواقع السياسي والوطني اللبناني؟ أم هو "الاهتراء" الطبيعي الذي يصيب الحاكمين بمرور الزمن، ورغبة الناس في تغيير الوجوه الحاكمة؟

قد تكون كل هذه الأسباب مجتمعة أوهنت التيار الشهابي، بعد خروج الرئيس شهاب من الرئاسة، وخلال السنوات الست التي تلت، في عهد الرئيس شارل حلو. إلا انه تجدر ملاحظة الأمور التالية:

أولاً: تواصل تنفيذ الخطة الخمسية الثانية، التي كانت تقررت في عهد الرئيس شهاب، في عهد الرئيس حلو، ومن بين مشاريعها الضمان الصحي ومشاريع أخرى.

ثانياً: حاول الرئيس شهاب، وبعض المؤمنين بالنهج الشهابي، إنشاء مؤسسات فكرية وتكتلات حزبية، لدعم استمرار النهج سياسياً وفكرياً (نادي ٢٢ تشرين الثاني، التكتل السياسي النيابي الذي كان يرئسه رشيد كرامي ويضم النواب الشهابيين). ولكن هذه الأندية الفكرية والتكتلات، لم تنجح في أن تتحول إلى حزب سياسي وطني (على غرار الحزب الديغولي في فرنسا، مثلاً). بينما نجح المعارضون في إقامة الحلف الثلاثي، والكتلة المستقلة التي ضمت سليمان فرنجية وصائب سلام وكامل الأسعد وغيرهم.

ثالثاً: لعب المكتب الثاني في الجيش، وضباطه المعروفون بولائهم للرئيس شهاب لا سيما وان الرئيس شارل حلو أبقاهم في مراكزهم ، دوراً بارزاً، سواء في تأدية مهامهم الأمنية، أو في التدخل المباشر في الشؤون السياسية، الأمر الذي استقطب انتقادات المعارضين، فأصبحت المعارضة للشهابية ونهجها، في شعارات المعارضة، وفي نظر قسم من الرأي العام المسيحي وفي أوساط المثقفين، ولا سيما الأحزاب السياسية اليسارية والقومية، نضالاً من أجل الحريات وضد تدخل الجيش في السياسة.

رابعاً: بعد هزيمة حزيران العسكرية، وما لحق بجمال عبد الناصر والناصرية من نكسة على الساحة العربية، وما استتبع ذلك، من ظهور المقاومة الفلسطينية كبديل ثوري عربي، وتبني أحزاب قومية عربية وفلسطينية عدة الماركسية منطلقاً فكرياً سياسياً، لا القومية العربية وحدها، ومراهنة الاتحاد السوفياتي عليها وتوجيه دعمه إليها، ومن ثم تنافسها أو تحالفها مع أحزاب قومية حاكمة في دول عربية أخرى، (كحزب البعث في سوريا وفي العراق أو الأحزاب الثورية أو اليسارية الحاكمة في جنوبي اليمن والجزائر)، على وراثة عبد الناصر في قيادة العالم العربي، أو قيادة المعركة ضد إسرائيل... كل ذلك انعكس في لبنان بشكلين أو اتجاهين سياسيين: الأول، تركيز المقاومة الفلسطينية والأحزاب الثورية أو القومية على معارضة الشهابية في سياستها العربية المتعاطفة مع جمال عبد الناصر، وغير المعلنة العداء للغرب، وبنوع خاص، على التنديد بالمكتب الثاني في الجيش والهجوم القاسي عليه، بسبب مراقبته الشديدة للمخيمات الفلسطينية ومحاولات منعه للتسلح والتدريبات العسكرية فيها، ولعمليات المقاومة ضد إسرائيل عبر الحدود اللبنانية في الجنوب. والاتجاه الثاني: تركيز المعارضة المسيحية الملتقية في "الحلف الثلاثي"، على "الأخطار الثلاثة التي تهدد لبنان"، وهي في نظرها: الشيوعية والشهابية والمقاومة الفلسطينية. وهكذا وجد الشهابيون، العسكريون والسياسيون، أنفسهم مستهدفين من قبل أنواع من المعارضات: مارونية يقودها الحلف الثلاثي، وإسلامية تحركها المقاومة الفلسطينية والأحزاب اليسارية، وتحالفات إسلامية ـ مسيحية مؤلفة من الزعماء السياسيين الذين أقصوا عن الحكم ويرغبون في العودة إليه. وكان من الصعب مقاومة كل هذه المعارضات المتناقضة الشعارات والأهداف والغايات، ولكن المتفقة على التنديد بالمكتب الثاني في الجيش. وهكذا أصبحت الشهابية والشهابيون، وبنوع خاص ضباط المكتب الثاني، عقبة في طريق دول وتيارات وأحزاب وقوى

أو تكتلات سياسية، كانت تتصارع في لبنان على الحكم، وفيما بينها.
كانت هزيمة مصر العسكرية العام ١٩٦٧، ضربة للسياسة العربية والخارجية التي كان الرئيس شهاب والشهابيون اتبعوها منذ انتهاء ثورة ١٩٥٨، وبعد وصول فؤاد شهاب إلى الحكم. والتي كان اتفاقه مع عبد الناصر ودعم هذا الأخير له في الأوساط الإسلامية والقومية والتقدمية اللبنانية، ركناً أساسياً فيها. قال لي الرئيس شهاب، يوماً، في أوائل السبعينات، إن هزيمة عبد الناصر العام ١٩٦٧ كانت، أيضاً، نكسة وطنية وسياسية للبنان ولسياسته العربية بل وللاستقرار الداخلي اللبناني. ومما سمعته، يوماً منه، بهذا الصدد، قوله: "يأخذون علي، لا سيما في الأوساط المسيحية، إنني "ماشي مع عبد الناصر"، أو "مساير له أكثر من غيره من رؤساء الدول العربية. صحيح، ولكن حتى لو لم أكن متفقاً معه في سياسته الدولية والاشتراكية، وطريقة تصديه للخطر الإسرائيلي، فهل من الحكمة أن يعادي أولا يساير رئيس لبناني، رئيس دولة تنظر إليه الجماهير العربية، كبطل قومي، وباستطاعته تحريك كل مسلمي لبنان سياسياً إذا شاء، بينما أنا لا أستطيع تنظيم تظاهرة في القاهرة؟".
كذلك كان اختيار المقاومة الفلسطينية لبنان، ولا سيما بعد أيلول الأسود في الأردن، قاعدة أساسية، فرئيسية، لمقاومتها إسرائيل، من أهم العوامل التي ضربت الشهابية، سياسياً. إذ وجد الجيش اللبناني والمكتب الثاني، نفسهما بين "شاقوفين": فإذا هم تركوا المقاومة الفلسطينية المتحالفة مع الأحزاب اليسارية، تسلح الفلسطينيين وتقوم بعمليات المقاومة ضد إسرائيل، تعرضوا إلى مزيد من نقمة الزعماء والرأي العام المسيحي، إضافة لإعتداءات إسرائيل على الأراضي والمنشآت اللبنانية (ضرب إسرائيل مطار بيروت وتدمير كل طائرات طيران الشرق الأوسط، كرد على عملية قامت بها المقاومة الفلسطينية، انطلاقاً من لبنان، كما جاء في بيان إسرائيلي). وكانت قيادة الجيش تستند في منعها المقاومة الفلسطينية القيام بعمليات عبر الحدود اللبنانية الجنوبية ضد إسرائيل، إلى مذكرة عسكرية رسمية صادرة عن القيادة العربية المشتركة في القاهرة تحظر القيام بأي أعمال حربية ضد العدو الإسرائيلي بدون إعلامها، وذلك تطبيقا لمعاهدة الدفاع العربي وتنفيذا للخطة العسكرية العربية المشتركة التي وضعت العام ١٩٦٤، استعداداً لمجابهة حرب إسرائيلية قد تتعرض لها الدول العربية إن هي حولت مجرى نهر الأردن. (المذكرة الرسمية كانت موقعة من الفريق علي عامر). كما ان محاولة الجيش ضبط الأمن في المخيمات الفلسطينية ومنع القيادات والأحزاب الفلسطينية من تدريب اللاجئين وتسليحهم، جعلته عرضة لنقمة المسلمين والأحزاب التقدمية والرأي لعام العربي. ولا شك في أن الضربة الرابعة التي أجهزت، سياسياً على الشهابية، بالإضافة إلى قيام الحلف الثلاثي المسيحي وخسارة انتخابات ١٩٦٨، ونكسة حزيران ١٩٦٧، كانت في اختيار المقاومة الفلسطينية للبنان قاعدة أساسية لنضالها، واعتمادها ما سمي باستراتيجية تحرير فلسطين، على الطريقة الفيتنامية، وصيرورة لبنان، في نظرها ونظر القوى والدول العربية وغير العربية، "هانوي" جديدة. وما زال الجميع يذكرون عبارة شهيرة أطلقها أحد القادة الفلسطينيين (أبو أياد)، فيما بعد: "طريق حيفا يمر بجونيه".
كان تدمير إسرائيل للأسطول الجوي المدني اللبناني، في نهاية السبعينات، والأزمة الحكومية التي استمرت أشهراً عدة ولم تنته إلا بعد توقيع اتفاق القاهرة بين الحكومة اللبنانية والمقاومة الفلسطينية، والذي أعطيت المقاومة بموجبه اعترافاً بحقها في ممارسة نضالها ومقاومتها لإسرائيل انطلاقاً من الأراضي اللبنانية، ضربة غير مباشرة لمشروع عودة الشهابية والشهابيين إلى الحكم، عبر الانتخابات الرئاسية التي كان استحقاقها في عام ١٩٧٠، وهو مشروع كان الشهابيون، العسكريون والسياسيون يعملون له، منذ سنوات، وبعد ظهور خلافاتهم مع الرئيس حلو.

لمعركة الرئاسة العام ١٩٧٠

بالرغم من كل هذه العوامل المستجدة على الساحة اللبنانية، في السنوات الثلاث الأخيرة من العهد الشهابي - الحلوي، وغير المؤاتية للشهابيين، كانت القوى الموالية لفؤاد شهاب أو المؤمنة بنهجه، سواء في مجلس النواب أو الأوساط السياسية والإعلامية، قوية ومتماسكة. (والدليل إنها خسرت معركة الرئاسة، العام ١٩٧٠، بفارق صوت واحد. ولو نجحت مناورات الأيام أو الساعات الأخيرة، لكان الياس

سركيس، هو الفائز بصوتين أو ثلاثة). لكن فؤاد شهاب رفض الترشح للرئاسة. رغم تمني وإلحاح الكثيرين من مؤيديه والمؤمنين بنهجه وحلفائه من السياسيين والزعماء التقليديين، كرشيد كرامي وصبري حمادة وكمال جنبلاط وغيرهم. وقطعا للطريق على محاولات إقناعه بالترشح - وكان فوزه، لو ترشح، شبه مؤكد - أصدر في آب ١٩٧٠، أي قبل موعد الانتخابات الرئاسية، بأسابيع، بياناً، عرف "ببيان العزوف"، أعلن فيه قراره بان لا يكون مرشحا للرئاسة. (بيان العزوف عن الترشيح منشور في مكان آخر من الكتاب). وكان على النواب النهجيين وحلقة القريبين جداً من الرئيس شهاب، من عسكريين وسياسيين، تقديم مرشح شهابي آخر، بعد فشلهم في إقناعه بالترشح. وكان بروز اسم الياس سركيس، حاكم مصرف لبنان، ومدير عام رئاسة الجمهورية في عهد فؤاد شهاب، والذي كان يعتبر ابناً روحياً له، نتيجة اختيار فؤاد شهاب له، أولاً، لأنه كان مقتنعاً بكفاءته وخبرته وولائه للمبادئ أو النهج الشهابي. لأنه كان لا يخفي خيبته من اختياره الرئيس شارل حلو، خليفة له العام ١٩٦٤. وخوفه من أن يصاب بخيبة مع رئيس "سياسي" جديد. غير انه بذل جهودا لإقناع الزعماء السياسيين التقليديين، ولا سيما الكبار منهم، كرشيد كرامي وكمال جنبلاط، بانتخاب "الموظف" الياس سركيس. كما تجند رئيس المكتب الثاني وضباطه، في خدمة المرشح الشهابي، وحتى الساعات الأخيرة التي سبقت جلسة الانتخابات، كانت "حسابات" الشهابيين، تشير إلى فوز مرشحهم ضد مرشح المعارضة، سليمان فرنجية. ولكن مناورات المعارضة المعاكسة، في اللحظات الأخيرة من عملية الانتخاب، جعلت سليمان فرنجية يفوز بفارق صوت واحد على الياس سركيس. وكان وصول سليمان فرنجية، بداية نهاية الشهابية السياسية التي حكمت لبنان أو وجهت سياسته من العام ١٩٥٨ إلى العام ١٩٧٠.

هل كان انتخاب سليمان فرنجية وحده هو سبب طي الصفحة الشهابية؟ أم ان انتخاب الياس سركيس كان سيعيد الشهابية والشهابيين، إلى سابق العهد الذهبي الذي عرفوه في بداية الستينات؟ أم هل ان عزوف الرئيس شهاب عن الترشح كان، فقط، للأسباب التي ذكرها في بيانه، أم لأنه أدرك ان السنوات المقبلة، في العهد الرئاسي الجديد، ستكون قاتمة وخطيرة، وان الظروف والنزاعات التي كانت غيومها تتلبد في سماء لبنان والمنطقة، لا بد آتية بمثل ما أتت به، العام ١٩٧٥؟

في ما قاله الرئيس شهاب للنائب، يومذاك، رينه معوض، الذي اتصل به ليسأله رأيه في الإشكال الذي أثاره رئيس المجلس النيابي صبري حماده، بعد فرز أصوات النواب في الدورة الثانية من الانتخابات الرئاسية، رافضاً إعلان انتخاب سليمان فرنجية: "قل له أن يعلن انتخاب سليمان فرنجية"، جواب على بعض هذه التساؤلات. فالرئيس شهاب كان يتمنى فوز الياس سركيس لا ريب في ذلك، لكنه كان يعرف ان الرأي العام اللبناني، والظروف العربية الراهنة، يومذاك، هي ضد عودة الشهابية إلى الحكم، أو انها لن تسهل مهمة الرئيس الجديد للجمهورية اللبنانية، لا سيما إذا كان شهابياً.

وثمة جواب آخر: هو ما سمعته شخصياً منه، في زيارة لاحقة للانتخابات الرئاسية، إذ قال لي: "خلافاً لما كان البعض يعتقد، لم تكن الولايات المتحدة ضد عودتي إلى الرئاسة. فلقد زارني السفير الأميركي، قبل الانتخابات الرئاسية بأيام، ليبلغني أن حكومته لا تعارض ترشيحي وعودتي إلى الرئاسة، بل تحبذ ه وتتمناه، ولكنني كررت عليه ما ذكرته في بياني".

بطبيعة الحال، كان فؤاد شهاب حريصاً على استمرار النهج السياسي الذي

الرئيسان فؤاد شهاب وسليمان فرنجية: احترام متبادل

نادى به وطبقه، وعلى وحدة الجيش اللبناني ودوره الوطني، كذلك على مصلحة أصدقائه وحلفائه والموالين له ولمبادئه وأفكاره، من السياسيين والموظفين والعسكريين، ولقد سهر على ذلك، طوال فترة رئاسة الرئيس حلو، بالتوجيه من بعيد. لكنه كان مدركاً لما ينتظر لبنان من مشكلات وأزمات خطيرة، بعد العام ١٩٧٠. لذلك إثر الانسحاب وتحميل الذين عارضوه، مسؤولية مجابهة هذه المشكلات والأزمات، التي كان، دائم التخوف والتحذير من وقوعها، إذا استمرت السياسة في لبنان، تدور حول ما كانت تدور حوله من حزبيات وعصبيات ومصالح شخصية، على حساب الدولة.

وفي الحقيقة تلك كانت نقطة القوة والضعف، في آن معاً، في شخصية فؤاد شهاب وفي نهجه وحكمه، نعني ترفعه عن السياسة وألاعيبها وزهده في المناصب والسلطة و رؤيته الوطنية الاجتماعية الإنسانية. وقد جعل ذلك منه رجل دولة بل بانياً لدولة المؤسسات الحديثة، من جهة، ولكنه من جهة أخرى، كان يأنف خوض المعارك السياسية، والنزول إلى الساحة أو مخاطبة الجماهير والمواجهة العلنية لأخصامه أو قيادة حزب سياسي. كما كان يأبى التخلي عن دور الجندي الذي أجبرته الظروف على أن يقوم "بوظيفة" رئيس الجمهورية. ويخشى من ثبوت اتهام أخصامه له بأنه سعى إليها، في أثناء قيادته للجيش. ولقد لعبت في تكوين هذا الإباء أو ذلك الزهد، عوامل عدة منها، نسبه الشهابي الأميري، تربيته وانضباطيته العسكرية، ومنها خجله الطبيعي. وقد يكون لإتقانه اللغة الفرنسية اتقاناً أفضل من إتقانه اللغة العربية، وعدم إتقانه "للتمثيل" - وهو من أهم شروط اكتساب الشعبية الجماهيرية - وإيثاره الجو العائلي وحلقات الأصدقاء الصغيرة، أيضاً، من بين الأسباب المشار إليها.

«تصفية» الشهابيين

دخل لبنان بعد انتخاب سليمان فرنجية رئيساً للجمهورية عهداً جديداً، بكل معنى الكلمة. لا سيما بعد أن ألّف الرئيس صائب سلام الحكومة الأولى للعهد، وكانت خصومته للرئيس شهاب ولضباط المكتب الثاني والشهابيين، معروفة. فجرت تعيينات أقصت عدداً كبيراً من الشهابيين عن المراكز الحساسة في الدولة، كما أقصي ضباط المكتب الثاني الشهابيون عن مراكزهم وأرسل بعضهم إلى الخارج كملحقين عسكريين. (ثم أحيلوا إلى المحاكمة، فيما بعد، ولكن المحكمة العسكرية برأتهم من التهم المنسوبة إليهم وأهمها التدخل في السياسة والانتخابات، ومخالفة القوانين العسكرية). ثم جاءت الانتخابات النيابية، العام، ١٩٧٢، لتقصي عدداً كبيراً من النواب الشهابيين أو النهجيين السابقين عن المجلس النيابي ولتأتي بوجوه جديدة موالية أو متحالفة مع أركان العهد الجديد أي الرئيس فرنجية وصائب سلام وكامل الأسعد، وبيار الجميل وكميل شمعون وريمون اده.

غير أن الرئيس سليمان فرنجية، كان حريصاً، رغم مسايرته لحلفائه في الحكم من أخصام فؤاد شهاب والشهابية والشهابيين، اللدودين، على أن لا "يكسر الجرة"، كما يقال في لبنان، مع الرئيس شهاب. ولم ينقطع الاتصال بينهما مباشرة أو بواسطة أصدقاء مشتركين. وكان الرئيس شهاب، المعتكف في منزله بجونيه، مكتفياً باستقبال أصدقائه والشخصيات السياسية والإدارية التي عملت معه وشاركته أفكاره ونظرته الوطنية والسياسية، ولكن بدون إخفاء انتقاداته أو مخاوفه من تطور الأحداث والأوضاع في لبنان والمنطقة. غير انه كان حريصاً على عدم التوجه بانتقاده إلى الرئيس فرنجية، بل كان لا يبخل في الثناء عليه أو على بعض مواقفه. لكنه كان بادي التشاؤم من تردي الأوضاع في تلك السنوات الأولى من السبعينات. وهي السنوات التي بدأت فيها الصدامات تتوالى وتتصاعد بين المقاومة الفلسطينية وحلفائها من المسلمين والأحزاب اليسارية والتقدمية، من جهة، وبين الكتائب والوطنيين الأحرار وفريق من ضباط الجيش وقيادته، والرأي العام المسيحي، إجمالاً، من جهة أخرى. ثم جاء مصرع قائد الجيش، العماد جان نجيم، وكان شهابي الولاء والميول، ليرجح، على مستوى القيادات والمكتب الثاني، كفة فريق من الضباط الذين كانوا لا يخفون تخوفهم من بلوغ المقاومة الفلسطينية ما بلغته من قوة وتسلح وهيمنة على الشارع الإسلامي اللبناني، ومن تحالفها مع القوى والأحزاب اليسارية والتقدمية. وكانت بداية الأزمة بين المقاومة والجيش اللبناني، ونشوء الميليشيات المسيحية وتدربها ومواجهة المقاومة الفلسطينية والقوى والأحزاب اليسارية والقومية (العربية والسورية)،

والزعامات الإسلامية. وهي أزمة وسعت الشرخ في ما يسمى بالوحدة الوطنية أو الوفاق الوطني، بين المسلمين والمسيحيين، في لبنان، وقادت إلى انفجار العام ١٩٧٥.

تألم فؤاد شهاب كثيراً من نفي الضباط الشهابيين ومن محاكمتهم. لا لأنهم كانوا بمثابة أبناء له، وكانوا، بدورهم، يعتبرونه أباً أو "معلماً"، بل لأنه كان أدرى من سواه بما قدموه من خدمات للبلد في أصعب الأيام. كذلك لأنه كان يرى للمكتب الثاني دوراً ضرورياً في السهر على الأمن وسلامة البلد، دون أن يكون موافقاً على بعض التجاوزات. وكان لا يتهرب من إبداء رأيه في مسألة المقاومة الفلسطينية وعملها على الأراضي اللبنانية وفي دور الجيش اللبناني، بعد هزيمة مصر والدول العربية، وطي خطة الدفاع العربي المشترك، بوفاة جمال عبد الناصر، العام ١٩٧٠، وبروز المقاومة الفلسطينية وقيامها بنشاطاتها من الأراضي اللبنانية. وتتلخص آراؤه، بهذا الصدد، في الخطة التي أوصى قيادة الجيش، بصفة شخصية، بوضعها، لتقوية الجيش اللبناني، وذلك في أواخر السبعينات. وفي حديث، سمعته منه، عن لقاء مع أحد كبار قياديي المقاومة الفلسطينية، طلب زيارته في جونيه.

لمحاولة تقوية الجيش

لم يكن الرئيس، وقائد الجيش سابقاً، فؤاد شهاب من القائلين، كبعض المنظرين السياسيين، "ان قوة لبنان هي في ضعفه". أي انه ليس من مصلحة لبنان أن يكون له جيش قوي وكبير العدد. ولكنه كان يدرك إبان قيادته للجيش، في السنوات الثلاث عشرة الأولى من إنشائه، أثر الاستقلال، إن إمكانات الدولة المالية لا تسمح ببناء جيش يفوق عديده بضعة آلاف، موزع ما بين بيروت والمناطق اللبنانية، وبطبيعة الحال، على الحدود اللبنانية الإسرائيلية. وكانت الاستراتيجية الدفاعية اللبنانية ضد العدو الإسرائيلي، تعتمد على معاهدة الدفاع العربي المشترك، وأيضاً على الأمم المتحدة والدول الكبرى لردع عدوان عسكري إسرائيلي، كما كان التزام لبنان وإسرائيل باتفاقية الهدنة يشكل ضمانة إضافية لسلامة الحدود. ولم يكن هناك قانون خدمة العلم الإلزامية التي تعتمد عليها الجيوش لزيادة عديدها. وبالإضافة إلى دوره في مساندة قوى الأمن أو الحلول محلها لحفظ الأمن وسلامة المنشآت والمرافق العامة، في الظروف الصعبة، كان الجيش مصهراً وطنياً للمتطوعين فيه من مختلف الطوائف والمناطق. وفي العام ١٩٦٤، عندما أنشئت القيادة العربية الموحدة، ومركزها القاهرة، التي كلفت بتنفيذ خطة عربية مشتركة للدفاع العسكري، بوجه إسرائيل، وشارك لبنان، ككل دول جامعة الدول العربية فيها، وخصصت له فيها مهمات معينة، دخل الجيش اللبناني مرحلة جديدة، تميزت بزيادة عدده وتسلحه وبتزويده بسلاح طيران حديث كطائرات (الميراج) وصواريخ كروتال ورادارات. إلا أن هزيمة مصر والدول العربية في حرب حزيران جمّدت تنفيذ خطة الدفاع العربي المشترك وكشفت هشاشة القدرة العسكرية اللبنانية على الصمود في وجه أي هجوم أو عدوان إسرائيلي واسع. وجاء العدوان الإسرائيلي على مطار بيروت والعام ١٩٦٨، ليكشف ذلك. ومن هنا برز الاتجاه في القيادة العسكرية اللبنانية، وبتوجيه أو موافقة الرئيس فؤاد شهاب، الذي لم ينقطع توجه كبار ضباط الجيش بإرشاداته، رغم تركه الرئاسة، نحو تقوية الجيش. وكلف أحد كبار الضباط بوضع المخطط الأولي لذلك. وكانت قاعدة هذا المخطط أو منطلقه، هو أن لبنان لا يستطيع بناء جيش كبير وحديث التسلح ووفيره، كإسرائيل، قادر على ردعها وصد عدوانها. فإسرائيل حصلت على مساعدات خارجية ومالية مكنتها من ذلك، ولكن لبنان، في الوقت نفسه، لا يجوز له ترك حدوده سائبة أو سهلة الاختراق، لا يحميها سوى فرقة أو فرقتين من الجيش، قليلة السلاح. ومن هنا كان الاتجاه نحو زيادة عدد الجيش وتقويته، ليبلغ عشرين أو ثلاثين ألفاً، وتسليحه بحيث يكون بإمكانه الصمود في وجه هجوم إسرائيل، بضعة أيام أو أسابيع، قبل تدخل الجيوش العربية أو الدول الكبرى ومجلس الأمن لإيقاف القتال.

وثمة سبب آخر، أو جديد، كان يدفع بالقيادة إلى تقوية الجيش وزيادة عدد جنوده، وهو بروز المقاومة الفلسطينية المسلحة وتمركزها في لبنان ومباشرتها القيام بعمليات عسكرية عبر الحدود اللبنانية. الأمر الذي كان سيؤدي، حتماً (وقد أدى إلى ذلك بعد سنوات)، إلى رد إسرائيلي عبر الحدود أو على الأراضي اللبنانية. لذلك كان لتعزيز الجيش هدفان: تأمين القدرة

على "فرض احترامه" على المقاومة الفلسطينية التي كانت تزداد تسلحاً وقوة، وبالتالي حملها على التنسيق مع القيادة، لا تجاوزها، بالإضافة إلى قدرة الجيش على تغطية أو حماية الحدود بوجه ردود الفعل الإسرائيلية على عمليات المقاومة.

إلا أن المجلس النيابي الجديد، الذي لم تعد أكثريته شهابية، لم يقر الاعتمادات المالية اللازمة لتنفيذ خطة تقوية الجيش. فأخصام الشهابيين فيه، برروا رفضهم بأن هذه التقوية سوف تصب سياسياً في مصلحة الشهابيين، أما مناصرو المقاومة الفلسطينية، فبرروا رفضهم بأن هذه التقوية ستوظف لضرب المقاومة. وهكذا، ولأسباب متناقضة كلياً، طويت خطة تقوية الجيش في نهاية الستينات، وفقدت الدولة اللبنانية وسيلة هامة من وسائل السيطرة على الأمن والسلامة الوطنية، بوجه الأخطار والعواصف الداخلية والإقليمية التي كانت تتفاقم فيه أو تتجمع في سماء لبنان والمنطقة.

من ١٩٧٠ إلى ١٩٧٥

إن التناقضات الوطنية، المتداخلة مع تناقضات التفكير والمصالح السياسية الطائفية، مع امتداد الحرب الباردة الدولية إلى لبنان، واختيار الدول العربية المتنازعة الساحة اللبنانية حلبة لتصفية نزاعاتها، نشأت، عملياً، بعد هزيمة عبد الناصر العام ١٩٦٧، وراحت تتصاعد، بعد ضرب المطار وانتقال المقاومة الفلسطينية من الأردن إلى لبنان، ثم توقيع اتفاق القاهرة، وصولاً إلى مقتل بعض قادة المقاومة في بيروت، على أيدي كومندوس إسرائيليين أدى إلى استقالة حكومة الرئيس سلام، ووقوع أول اصطدام مسلح كبير بين المقاومة الفلسطينية والجيش اللبناني، العام ١٩٧٣، قبل فترة وجيزة من وفاة الرئيس شهاب. وابتداء من ذلك التاريخ، ورغم كل المحاولات، راحت الأمور تتفاقم فيما التناقضات بين مصلحة المقاومة الفلسطينية في أن تمارس مقاومتها انطلاقاً من لبنان، ومصلحة الدولة اللبنانية في أن تمارس سيادتها على أراضيها، تتزايد، يوماً بعد يوم. وانقسمت البلاد إلى فريقين: أحدهما يناصر المقاومة الفلسطينية وحقها وحريتها في حماية نفسها وممارسة مقاومتها، ويضم المقاومة والأحزاب السياسية اليسارية والقومية والتقدمية ومعظم الزعماء المسلمين، وتؤيدها أكثرية المسلمين، وفريق آخر، يضم الأحزاب السياسية المسيحية، وفريقاً كبيراً من ضباط الجيش، مؤيداً من الرأي العام المسيحي. كان ثمة فريق ثالث، ممن كانوا يعتقدون بإمكانية التوفيق بين مطالب أو أماني الفريقين المتواجهين، أو منع تصادمهما. وقد وقعت اتفاقية عرفت باتفاقية "ملكارت"، بين القيادة اللبنانية وقادة المقاومة الفلسطينية، في هذا الاتجاه. ولكنها، لسوء الحظ، لم تطبق أو تتح لها فرصة التنفيذ، وربما لأن أصوات هذا الفريق كانت أضعف من أن تطغي على قرقعة السلاح الذي كان الفلسطينيون في المخيمات، وأفراد الميليشيات الحزبية المسيحية، في معسكرات التدريب، يتدربون على استعماله.

الحديث بين شهاب وقيادي فلسطيني

إبتداء من العام ١٩٧٣، لم يكن هنالك، أمام لبنان واللبنانيين، سوى ترقب الاصطدام المسلح ما بين الفريقين. إلى أن حصل الانفجار الذي بدأ بحادث إطلاق نار على أوتوبيس ينقل فلسطينيين، في عين الرمانة، وتحول إلى حرب، بل حروب، استمرت خمسة عشر عاماً.

خلال تلك الفترة العصيبة، اتجهت الانظار إلى الرئيس شهاب المعتكف في منزله. وبالرغم من ابتعاده عن التدخل في السياسة واقتصاره على إبداء الرأي و التوجيه السياسي للشهابيين المخلصين له أو لنهجه، كان "الجنرال"، لا يخفي قلقه وتخوفه من تفاقم الاوضاع في لبنان. لم يكن يحمل الدولة أو العهد الجديد أو اخصامه الذين اخرجوا الشهابيين من الحكم، مسؤولية كل الاوضاع المتفاقمة، ولكنه كان لا يكتم ثورته على بعض الزعماء والسياسيين الذين "اوصلوا البلاد إلى حيث ما وصلت"، واوقفوا تنفيذ الاصلاحات الاجتماعية ومشروع بناء الدولة الحديثة، الذي وضع اسسه، وهوفي الحكم. كما انه، من جهة اخرى، كان لا يخفي معارضته لتصرفات المقاومة الفلسطينية وتجاوزاتها لسلطة الدولة وخرقها لسيادتها.

ولعل ما رواه لي شاهد لزيارة سرية قام بها احد كبار قادة المقاومة الفلسطينية للرئيس شهاب، بناء على موعد سابق دبره صديق للطرفين، وما دار من حديث بينهما، يلخص تفكير أوموقف فؤاد شهاب، من تلك الازمة التي مهدت للحرب اللبنانية:

قال: استمع الرئيس شهاب إلى زائره القيادي الفلسطيني، ما يقارب النصف الساعة، وهو يشرح له اهداف المقاومة وحسن نياتها واسباب الاختلاف مع الجيش، ثم تناول الرئيس شهاب الحديث، قائلاً:

أولاً، اريد ان أبلغك احترامي لمبدأ مقاومتكم للعدوالذي اغتصب ارضكم. وإذا كان لي من مأخذ في هذا الصدد فهو انكم تأخرتم عشرين عاما في الشروع بالمقاومة، إذ كان عليكم ان تبدأوها في اليوم التالي لقيام اسرائيل.

ثانياً: أنا لا أجيد اللغة الإنكليزية، ولكنني أعرف أن المقاومة تدعى بالإنكليزية:(underground)، أي "تحت الأرض. أي إن أول شرط لها هو ان يكون القائمون بها مجهولين من العدو، يعملون في الليل أوالظل، ولا تنشر الصحف صورهم وتصريحاتهم. فتسهل على العدو معرفتهم وبالتالي ضربهم.

ثالثاً: قرأت تصريحات بعض قادتكم تقول انكم ستتبعون في مقاومتكم، اسلوب المقاومة الفيتنامية، اي حرب التحرير. فاسمح لي، كضابط درس الاستراتيجية العسكرية ان ابدي تحفظي بل شكي في امكانية نجاح الاستراتيجية التي طبقها الفيتكونغ في فلسطين ضد اسرائيل. فهناك في ادغال الفيتنام، وبين ابناء الشعب الفيتنامي الذين يشكلون اكثرية السكان، كان من الممكن تطبيق مبدأ "السمك في الماء"، وتوفير شروط حرب التحرير، لا سيما وان دولة كبرى كانت وراء الفيتناميين. وليست هذه الشروط متوافرة لكم في حربكم ضد اسرائيل. ففي اسرائيل اكثرية يهودية، لا يستطيع المقاوم الفلسطيني ان يمارس بينها عملياته وان يختفي، كما يختفي السمك في الماء. بل عليكم ان تفكروا باسلوب آخر في المقاومة، يوجع اسرائيل بدلاً من اسلوب حرب التحرير المنطلقة من الاراضي اللبنانية.

واخيراً: وبالنسبة لوجودكم ونشاطكم في لبنان، لا يسعني سوى القول

الرئيس الياس سركيس مودعاً الرئيس شهاب المسجى على فراش الموت

قبر الرئيس فؤاد شهاب

بأن مجرد حملكم علناً للسلاح لا بد من أن يؤدي إلى الاصطدام بالجيش الذي يحق له وحده حمل السلاح علنا. وإذا كان هناك، كما يعرف الجميع، من حزازات، احيانا، بين الجندرمة والجيش في حال تواجدهما معاً، في مهمة لحفظ الأمن، فذلك يعود، نفسانياً، إلى وجود السلاح في ايد كل منهما. فكيف حين يكون حامل السلاح الآخر في مواجهة الجيش، غير لبناني؟ وأما بشأن العمليات التي تقومون بها عبر الحدود ضد اسرائيل، فمن حق الجيش ان يعرف بها، وعليكم ان تنسقوا، سراً، معه، إذ كيف تريدون ان لا يطلق الجيش النار على فدائييكم، أويعتقلهم ليحقق معهم، عندما يجتازون الحدود عائدين من اسرائيل، إذا كان غير مطلع على العملية سلفاً؟

يقول شاهد هذه المقابلة، ان القيادي الفلسطيني، قاطع الرئيس شهاب، قائلاً: "ولكن، يا فخامة الرئيس،الثقة معدومة بيننا وبين الجيش، ونخشى ان اطلعناه على عملياتنا سلفاً، ان يمنعنا عن القيام بها."

وأجاب الرئيس وهو يستعد لإنهاء الزيارة: "كان من المفروض ان لا تصل العلاقة بينكم والجيش والسلطة إلى هذا الحد من سوء التفاهم والحساسية والتوتر. اما وقد وصلت إلى هذا الحد، فلا يسعني سوى ان أعلن أسفي الشديد بل خوفي من ان تصلوا إلى الاقتتال، وتكون اسرائيل ضربت عصفورين بحجر واحد".

في الخامس والعشرين من العام ١٩٧٣، توقف قلب فؤاد شهاب، وتوفي في منزله بجونيه، عن واحد وسبعين عاماً. فتوافد كبار رجال الدولة والسياسيون والشخصيات اللبنانية إلى منزله ليلقوا على جثمانه النظرة الاخيرة ويذرفون الدموع على رحيله. وقد شيعته الدولة والبلاد إلى مثواه الاخير، في مدافن الاسرة في غزير. وأجمعت كل الاوساط السياسية والشعبية والثقافية، على الاعراب عن تقديرها للدور الوطني الكبير الذي لعبه في تاريخ لبنان الحديث.